مقياس : صدر الاسلام / سنة ثانية تاريخ/ السداسي الاول

المحاضرة الأولى: حضارات شبه الجزيرة العربية

أولا: الحياة السياسية في شبه الجزيرة العربية

مخطئ من يعتقد أن العرب بعيدون عن السياسة، وأنّهم لم يعرفوا النظم السياسية إلا بعد مجيئ الاسلام، صحيح أنّ العرب لم يعرفوا وحْدة سياسية إلا مع الاسلام، الذي جعلهم أمّة واحدة، غير أنّه من الإجْحاف أن نخْتزل الحضارة العربية برمّتها وخاصة في المجال السياسي في مرحلة ما بعد الاسلام، فالمتعارف عليه أنّ الحضارة تُبْنى بالتّراكم، لذلك نعتقد أنّ مرحلة ما قبل الاسلام مهّدت في كثير من المجالات لإنشاء حضارة عربية إسلامية عريقة، وما المجال السياسي الذي سنتطرق إليه في هذه العجالة إلا أكبر دليل على ذلك.

1- الممالك العربية وحضارات ما قبل الاسلام:

كانت اليمن أكثر تحضّرا من غيرها من بلاد العرب لذلك ظهرت بها عدّة ممالك منها:

- مملكة معين:(650-1200 قبل الميلاد) وحاضرتها قرنا وشرقي صنعاء.
- مملكة سبأ: ورثت مملكة معين ودامت من 650 ق م، وحتى 115 ق م.
- مملكة قتْبان التي عاصرت معين سنة 1000 ق م وبقيت حتى 200 ق م.
- مملكة حضْرموت: اندمجت في مملكة معين قرابة ثلاثة قرون وانتهت نحو سنة 630 ق م، ثم انْدمجت بعد ذلك في مُلكة سبأ من سنة 630 ق م وحتى 180 ق م، ثمّ استقلت وبقِيت حتى سنة 300م.
- مملكة حمْير:(300م- 525م) وحاضرتها ريدان، التي تعرّضت للغزو الحبشي في عهديْ النّجاشي وأبْرهة من بعده.

ومن الممالك العربية غير اليمنيّة والتي نشأت شمال بلاد العرب نذكر:

- مملكة الحيرة(المناذرة): وهي إمارة حدود جنوبي العراق، وشكّلت حائلا بين الفرس وبين بيزنطة والقبائل العربية في الشام، ويرجع تاريخها إلى القرن3م، واستمرت إلى ظهور الاسلام.
- مملكة غسّان(الغساسنة): وهي إمارة حدود أيضا، نشأت بعد أن هاجرت قبائل الأزْد من بلاد اليمن على إثر انهيار سدّ مأرب، فسار بطن منهم إلى الشام، وأقاموا على ماء هناك يسمّى غسّان فسُمّوا أزْد غسّان، وولاّهم الروم على عرب الشام، متّخذين منهم أعوانا لهم على الفرس.
- مملكة الحضر(مملكة عَرَبَايا): وقامت على ضفاف نهري دجلة والفرات، (50 ق م 231م).
- مملكة الأنباط: وقامت جنوابي البحر الميّت وشرقه، وتوسّعت شمالا فاحتلّت دمشق في 85 ق م، وعاصمتها البتْراء، واستمرّت حتى قضى عليها الرومان سنة 106م.

- مملكة تدْمُر: ازدهرت منذ أوائل القرن الميلادي الأول، وتوسّعت حتى الأناضول شمالا، ودومة الجندل جنوبا، والأنبار والحيرة شرقا، وسيناء وداتا النيل غربا، وقضى عليها الامبراطور الروماني "أورليانس" سنة 271م.
- مملكة كِنْدة وعاصمتها الفاو، وتقع على الطريق التجاري الهام الذي يربط جنوبي شبه الجزيرة وشمالها، وهي بذلك تعتبر مركزا تجاريا هاما وسط شبه الجزيرة العربية، استمرت على تلك الأهمية لأزْيد من خمسة قرون قبيل الاسلام.
- الحجاز: وقد حافظ على استقلاليته منذ أقدم العصور، منذ أن سكنه العمالقة، وجُرْهم الثانية التي خلفتهم، وحين قدِمت خزاعة من اليمن آلت إليها إلى السيادة، ولمّا قويت قريش أخذ قصي بن كلاب سنة 440م السيادة في مكّة، وأجْلى خزاعة إلى بطن مر(وادي فاطمة)، وقد أسّس قُصَي دار الندوة وأنشأ اللّواء في الحروب، واهتمّ بشؤون الكعبة باستحداثه لمهمّة الحجابة والسّدانة، كما اهتمّ برعاية الحجيج فاستحدث مهمّة السقاية والرفادة[i].

2- أيام العرب(صورة من صور النزاع السياسي)

كثر النزاع بين القبائل العربية في الجاهلية، بسبب الاختلاف على السيادة، أو التسابق على موارد الماء ومنابت الكلأ، فوقعت بينهم حروب كثيرة أُريقت فيها الدماء في أيام معدودة معلومة عُرفت بأيام العرب، منها يوم ذي قار، وجذيمة الأبرش، والزباء، وطسم، وجديس، وحرب زهير بن جناب الكلبي مع غطفان، وبكر وتغلب، وبني القين، ويوم البردان، ويوم خزاز، والحرب بين الحارث بن الأعرج وبني تغلب، ويوم عين أباغ الذي كان بين المنذر بن ماء السماء وبين الحارث بن الأعرج، ويوم الرحرحان[ii]، وغيرها كثير، ولكن سنذكر أهمها باختصار:

- حرب البسوس: وكانت بين بَكْر وتَغْلب ابني وائل بن هنب بن أفْصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وكانت بسبب قتل كليب بن وائل بن ربيعة بن الحارث ... بن تغلب، فكان مدارها حول قضية الثأر، ودامت أربعين سنة.
- داحِس والغبْراء: وكانت بين عبْس وذُبْيان، وسببها رهان حول سباق فرسين، ودامت أربعين سنة.
- عام الفيل: وهو العام الذي أراد فيه أبرهة الحبشي ملك اليمن أن يحوّل وجهة العرب إلى حيث كنيسته الكبرى بصنعاء (قُلَّيس) كلّ ذلك إرضاءً لسيّده النجاشي ملك الحبشة، ولمّا سمع به أحد العرب قدِم إلى الكنيسة وأحدث بها، فلمّا سمع بذلك أبرهة قيل له: أن الذي فعل ذلك رجل من أهل ذلك البيت الذي تحجّه العرب بمكة، فعزم أبرهة على هدم الكعبة، ثم سار بجيش عرمرم ومعه فِيلُه، وعند قدومه لمكة عرفت قريش ومن حالفها أن لا طاقة لهم بقتال أبرهة تركوا بيت الله لله، وقال سيّد مكة حينها عبد المطلب وهو جدّ الرسول الأكرم : أنا ربّ الإبل وإن للبيت ربًّا سيمنعه"، فمنع الله بيته من أبرهة حين أرسل طيرا أبابيل أردتْهم قتلى، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ}[iii]، قال ابن كثير: وفي عامها ولد رسول الله الأكرم ρ على المشهور[iv].
- أيام الفِجار: وكانت بعد عام الفيل بعشرين سنة،[v] ووقعت في الأشهر الحرم بين قبائل من عرب الحجاز، والفِجار الأول بين كنانة وهوازِنْ، والفجار الثاني بين قريش

وهوازنْ، والفجار الثالث كان بين كنانة وهوازن، والفجار الرابع بين قريش وكنانة من ناحية وقريش من ناحية أخرى، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعدّوا القتلى ثم يتحاكموا إلى الدّيات، وكانت هذه الحرب قبل مبْعث النبي صلى الله عليه وسلم بستٍّ وعشرين سنة، وقد شهدها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة.

- حلف الفضول: وهو تحالف قبائل من قريش على نصرة المظلوم، وتعاهدوا على أن لا يقرّوا ببطن مكة ظالما، وقالوا: لا ينبغي إلا ذلك لما عظّم الله من حقِّها، فأشْعر عمرو بن عوف الجرهمي:

إنّ الفضول تحالفوا وتعاقدوا أن لا يقِرَّ ببطن مكة ظالم
أمرٌ عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجارُ والمُعْتَرُّ فيهم سالم[vi]

فالتقى الجميع بدار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنّه وكانوا بني هاشم، وبني المطّلب، وبني أسد بن عبد العزّى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرّة، وقد شهده الرسول صلى الله عليه وسلم، وأشاد به بعد بعثته فقال عليه الصلاة والسلام: " لقد شهدت مع عمومتي حلْفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحبّ أنّ لي به حُمُر النّعم، ولو دُعيت به في الاسلام لأجبت"[vii].

ثانيا: الحياة الاقتصادية في شبه الجزيرة العربية

تعدّدت الأنشطة الاقتصادية للعرب في شبه الجزيرة العربية؛ حيث اشتهرت بعض مناطقها بالنشاط التجاري، في حين تخصّصت أخرى بالزّراعة والرّعي، وعرفت أخرى نشاطا حرفيّا وصناعيّا، ويعود ذلك التنوّع إلى تباين البيئات واختلاف التضاريس من جهة، وإلى طبيعة الإنسان ومجالات تأثيره وتأثّره من جهة أخرى.

1- الزراعة

يعود اهتمام الانسان العربيّ بمجال الزراعة إلى كوْنه يوفّر حاجة الإنسان من الغذاء ويؤمّن له المعاش، ومن المناطق التي اشتهرت بالزراعة في شبه الجزيرة العربية: يثْرب والطّائف واليمن، وقد عملت تلك المناطق على تنمية موارد الزّراعة، فنشطوا في حفْر الآبار والقنوات وإقامة السّدود والقناطر، كما أنّ أقاليم اليمامة ونجْد قد عُمّرت بالقرى الفلاحية والضِّيَاع، وساعدهم على ذلك طِيبُ الهواء ووفْرة الماء، كما أدّى التباين المناخي والتضاريسي إلى تنوّع المنتوجات الزراعية وهو ما اشتهرت به على وجه الخصوص بلاد اليمن السعيد؛ الذي استفاد من كثرة الأمطار ووفْرة السّدود؛ كسدّ مأْرب وسدّ الخانق وسدّ ريعان وسدّ سيان، وبلغ عددهم نحو ثمانين سدًّا، جعلت من اليمن جنّةً خضراء، وكانت سبأ جنة الجنّات باليمن، وارتبطت حضارتها بسدّ مأْرب[viii] قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ }[ix].

تنوّعت المحاصيل الزراعية لشبه الجزيرة العربية على حسب كلّ منطقة، وعموما كان غالب محصول الجزيرة من التّمر الذي اشتهرت به، وقد انتشر في كلّ أرجائها، ويكثر أكثر في واحات حضْرموت والإحساء والقصيم، وفي عمان وسهول تِهَامة، فضلا عن نجْران، وقد تمّ إحصاء نحو خمسين صنفا من أنواع التّمر الجيدة[x]، وقد شكّلت التّمور الغذاء الرئيس لسكّان الجزيرة،

والتّمر غنيّ بالعناصر الغذائية والدوائية، ويستعمل في صناعة الدّبس والخمر، ونظرا لأهمية التّمر قدّس بعض العرب النخلة، كما هو حال أهل نجران، وبالإضافة إلى التّمر قدّمت النخلة للإنسان العربي فوائد عديدة، حيث استعملت جذوعها كأعْمدة للمنازل وحمّالات لسقوفها، كما تُستعمل سعَفُها في سقوف المنازل أيضا، وفي صناعة القفف، أمّا نواة التّمر فتقدَّم علفًا للإبل بعد دقِّهِ، فالنخلة بذلك أضْحت سيّدة المزروعات في شبه الجزيرة العربية بدون منازع ومن غير منافس[xi].

يأتي بعد ذلك وفي المرتبة الثانية من حيث الأهمّية محصول الحبوب، والذي عرفته شبه الجزيرة بمختلف أنواعه وهو مكمّل للتّمر باعتباره أساسي لتأمين الغذاء، ومن أشهر الحبوب الحِنْطَة؛ وتزرع في اليمامة واليمن ويثرب، وكانت الحنطة تسدّ حاجة السكان من الغذاء، وفي بعض الأحيان كان الدقيق يُستورد من بلاد الشام والعراق، في حين كان الشعير يُزْرع في البوادي، ويُصْنع منه خبزُ أكثر الفقراء والأعراب، وكان الشعير يُزْرع بخاصة تحت النخيل، أما الذّرة فتكثر زراعتها في جنوب جزيرة العرب، وكانت تُستعمل في عمل الخبز أيضا، وخبْزها يُعرف بالطّهف، وهناك أيضا الحبّة السّوداء، وتعرف بالعَلَس، كانوا إذا أجْدبوا طحنوها وأكلوها، وتُزرع أيضا أنواع أخرى من الحبوب، كالعدس والفول والحمّص والكرسنة والشوفان والكمّون.

وعرفت شبه الجزيرة العربية إنتاج الزيتون، واشتهرت بلاد الأنباط والبحرين بزراعته، وهو مصدر رئيسي للزيت، ويُعدّ التين مع الزيتون من الأشجار المباركة التي أشار إليها القرآن الكريم بل وأقسم بها عزّ وجلّ في قوله تعالى : {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ}[xii]

كما اشتهرت اليمن والطائف بإنتاج الكروم، وكانوا ينتجون من فائض الأعناب الزّبيب والنّبيذ، وهناك أنواع عديدة من العنب اليمنيّة منها: الجرشي، والتبوكي، والكلافي، والتّربي، وكلّها تُنسب إلى مناطقها، أمّا أعناب الطائف، فمنها الكشمش، والرمادي. إضافة إلى ذلك عرفت شبه الجزيرة إنتاج الفواكه، فالرّمان يُزْرع في اليمن والحجاز، واشتهرت الطائف بعديد الفواكه، وكانت تموّن مكّة بها، خاصة من الكروم والتّوت، واشتهرت الحجاز بالتّين، وكان على أنواع، ومن بين النباتات والفواكه الأخرى: السّمسم، وقصب السكر، والموز، والخوخ، والسفرجل، والإجاص، والتّفّاح، واللّوز، والجوز، والزنجبيل.

وقد تعدّدت نظم الزراعة عند العرب قبل الاسلام، فكان هناك نظام المحاقلة، ونظام المساقاة، ونظام المخابرة، ونظام المزارعة، ونظام الخراج، وكانت الآلات المستخدمة في الزراعة على أنواع مختلفة منها: المحفار أو المسحاة، والمخدّة التي تخدّ الأرض، والمجْرفة والمِلْطس والفأْس والمِعْزقة، وغير ذلك.

الحرف والصناعات

شكّلت الصناعات والحرف موردًا آخر هامّا من موارد سكّان شبه الجزيرة العربية، وإذا كانت الحرْفة في أوّل أمْرها تلْبية لحاجيات الإنسان اليومية، لكنّها تطوّرت مع مرور الوقت لتصْبح صناعة يتمّ من خلالها تنشيط التبادل والتّجارة وتطوير العمل الصناعي، وفي ذلك مرحلة جديدة من مراحل تطوّر المجتمع.

وقد كانت الحرفة وكل مل يتعلّق بعمل اليد من الأمور المستهجنة عند الأعراب، وعند أكثر العرب أيضا، فلا يليق بالعربيِّ الحرِّ الشَّريف أن يكونا حرفيا أو صانعا، لأنهما من عمل العبيد والخدم والأعاجم والمستضعفين من الناس، فكان هؤلاء محلّ ازدراء في المجتمع العربي رغم احتياج الناس لهم، وقد انتشرت الحرف والصناعات في المناطق الحضرية إذ يُشترط في هذا النشاط توفّر الأمن والاستقرار من جهة، وتوفّر المواد الأولية والمواد الخام من جهة أخرى، ناهيك عن حاجة المجتمعات الحضرية لتلك المواد المصنّعة، ومع ذلك لا يمكن أن تخلو المجتمعات البدائية من وجود حدٍّ أدنى من النشاط الحرفي والصناعي بحيث يتماشى وبداوة تلك المجتمعات، بحيث يكون الإنتاج بسيطا خاليا من التعقيد[xiii].

لقد ظهر عند العرب قبل الاسلام ما يُعرف بالتخصّص الصّناعي، ومثال ذلك شُيوع صناعة الأسلحة وصقْل السّيوف، وصناعة الحليّ والمجوْهرات، والنّجارة والحدادة وصناعة الفخّار وغيرها، وقد عرفت مكة ويثرب كل هذه الصناعات، وقد استفاد منها المسلمون في ما بعد خاصّة في مرحلة إعداد الدولة[xiv].

واحترف العرب مجال التّعْدين لوفْرة المعادن في شبه الجزيرة العربية، خاصّة المعادن الثّمينة كالذّهب والفضّة، وكانوا يستخْرجون المعادن من سطح الأرض، وحفروا من أجل ذلك الأنْفاق والمناجم، ويتمّ بعد ذلك تجْميعها وتنْقيتها وطحْنها ثم صهْرها في الأفْران، ليتمّ في الأخير تصْنيعها وتتحوّل إلى موادَّ مصنّعة وأدوات استعمال للإنسان، ومن المناجم التي ذُكرت عند المؤرخين نذكر معدن (شمام) الذي كان يعمل به ألوف من المجوس حتى أنه كان لهم بيت نار يتعبّدون فيه، وهناك معدن (جهران) وكان يعمل به قوم من وضيعي تبع، وهناك معدن بمدينة العقيق يعمل به نحو مائتي يهودي [xv].

وقد وُجدت معادن شبه الجزيرة العربية في مناطق عدّة منها: الذّهب والفضّة باليمن وبديار بني سليم بالحجاز، والحديد في نقم وغمْدان وصنْعاء وعدن، واشتهر بنو أسْد بصناعة الحديد، ووُجد الكبْريت والرّصاص والزّاج أو الشبّ اليمني باليمن، وتوجد معادن الملْح في أماكن متعدّدة، ويستخرجه بعضهم من المياه المالحة، وبعضهم الآخر من المناجم، وأشهر مواضع الملح باليمن بجبل الملح في مأْرب، كما يستخرج من ممالح نجد وتهامة، ومن الصناعات المعدنية التي أنْتجها العرب صناعة التّماثيل واللّوحات البرونزيّة والأقداح والصّواني والمرايا والمسارج والمسكوكات وأدوات البناء والنّحت وآلات الزّراعة[xvi]، ويبدو أن اليمن فاقت غيرها من المناطق في مجال التصنيع وهي الأولى في الإنتاج، بحيث اشتهرت بتعدّد صناعاتها، فكلما وُجدت المواد الأولية وُجدت الصناعة، وقد اشتُهرت بصناعة الحديد واستخراج المعادن وتحويلها إلى مصنوعات، كما اشتهرت بالنجارة والحياكة، والدباغة، والأصباغ والصموغ وغير ذلك[xvii].

عرفت شبه الجزيرة العربية صناعات أخرى خارج المعادن منها الصناعات الحجرية التي تعتمد على تصنيع حجر المرمر والرخام وأحجار الغرانيت والديورايت وغيرها، وكذا صناعة الغزل والنسيج التي تنتج الثياب والأقمشة والخيام والزرابي وغيرها، إضافة إلى الصناعات الجلدية والدباغة التي اشتهرت بها الطائف وصعدة، وكذلك صناعة العطور والأصباغ وهي من الصناعات الزراعية التي تتخذ من النباتات مادة أولية لها، فكان العرب يستعملون العصفر

والزعفران والقرفة والحناء لصناعة الأصباغ، بينما ينتجون العطور من الأزهار والورود والنباتات[xviii].

ومن الصناعات الثقيلة التي عرفها العرب قبل الاسلام صناعة السفن والقوارب التي انتشرت باليمن لوفرة الأخشاب بها، وقد استورد اليمنيون الأخشاب الصلبة من الهند وبلاد الشام، وكانت اليمن تصدر السفن والقوارب إلى المناطق العربية الأخرى، كما اشتهرت البحرين أيضا بهذه الصناعة[xix].

التجارة

إن استراتيجية موقع شبه الجزيرة العربية كحلقة وصل بين شرق العالم وغربه، شماله وجنوبه، وكذا امتداد سواحلها وانفتاحها على قارات العالم القديم جعل منها منطقة تجارية بامتياز، حيث ازدهرت بها حركة قوافل التجارة برا وبحرا، داخليا وخارجيا.

لقد قام العرب بتبادل السلع والبضائع مع جيرانهم، واشتهرت مكة من بين مناطق شبه الجزيرة العربية بمكانتها التجارية بحكم موقعها الوسطي فهي سرّة العالم، ودلّل القرآن الكريم على مكانتها في قوله تعالى:{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}[xx]، وفي الآية دليل على توفّر نعمة الأمن والاستقرار، واللتان لا تحيا التجارة إلا بهما، وقد توفرت في مكّة لوجود بيت الله الحرام بها، ولم يقتصر أهل مكة على التجارة الداخلية بل تعدوه للتجارة الخارجية مع بلاد الشام واليمن والحبشة ومصر وغيرها من مناطق العالم الأخرى وبخاصة بعدما فقدت اليمن مكانتها التجارية جرّاء الغزو الحبشي ثم الفارسي في أوائل القرن السادس الميلادي.

كانت القوافل التجارية العربية تجوب الطرق والدروب والمسالك المنتشرة في بلاد العرب، ومما زاد في انتعاش التجارة دراية العرب بتلك المسالك من حيث طبيعتها وتضاريسها وأماكن تواجد الآبار فيها، إضافة إلى معرفتهم لمنازل النجوم والقمر وتحركات السحاب والرياح وكل ما له علاقة بعلم الفلك وعلم الأنواء، وكان الطريق الرئيسي لحركة القوافل يمتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة ساحل البحر الأحمر(القلزم)ويتفرع منه طريق يتجه نحو بلاد الشام وآخر نحو مصر، وفي الجنوب يمتد هذا الطريق موازيا لساحل حضرموت، وهناك طريق آخر يخترق بلاد العرب ويمتد من البحر الأحمر إلى الخليج العربي مارّا بمكة، وأشهر الطرق البرية التي كانت مسلكا للمسافرين والقوافل على حد سواء الطريق الغربي الذي يمتد من جنوبي الجزيرة حتى آيلة مارّا ببدر، ويتفرّع من بدر طريق يصل إلى يثرب، والطريق الواصل بين اليمن ويثرب مارّا بمكة، وقد يواصل المسافر سيره من يثرب حتى يصل بلاد الشام ومصر[xxi].

مثّلت الأسواق في بلاد العرب عصب التجارة الداخلية، وكان للأسواق أوقاتها وأماكنها المحدّدة، وكانت تعقد طوال العام، وتتميّز بوجود الخيام الخاصّة بإقامة المتردّدين عليها، والوكلاء الذين كانوا يقومون باستطلاع أسعار السلع المختلفة قبيل وصول القوافل، وتقع تلك الأسواق في مناطق مختلفة متناثرة من جزيرة العرب، فهي بذلك أسواق عربية، وهناك أسواق أخرى قصدها العرب للإتّجار في مواسم وفي أوقات مختلفة كانت خارج شبه الجزيرة العربية، كالتي في العراق أو في بلاد الشام، أو في الحبشة[xxii]، وقد اشتهرت أسواق العرب بارتياد الأدباء

والشعراء لها، إذ لم تقتصر على البيع والشراء بل كان يعقد فيها حلقات الشعر، وتذكر الروايات أن الشاعر العربي "النّابغة الذُّبْياني" كان يحضر سوق عكاظ، فتُضرَب له قبّة من أَدَمٍ، يجلس تحتها، فيَفِد إليه الشعراء من يريد أن يفتخر بشعره على غيره، لينشد أمامه شعره، فيحكم الذبياني على شعره برأيه، لمَا لرأْيه من أثرٍ في النّاس، وكان الشاعران الأعْشى وحسّان بن ثابت –شاعر الرسول الأكرم فيما بعد- ممّن احتكما إليه، وكذلك الشاعرة الخنساء[xxiii].

وزيادة على ذلك كانت الأسواق فرصة لعقد مجالس الصلح والتحكيم، إذ تحوّلت بعضها إلى مجتمعات سياسيّة ومؤتمرات عامّة، تُحْسم فيها أمور شتّى، كما هو الحال في أسواق مكّة، كسوق عُكاظ الذي اشترت منه السيدة خديجة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وسوق مجنّة ويأتي بعد عُكاظ في الزمن، وكذلك سوق ذي المجاز وهو آخر الأسواق انعقادا قبل فترة الحج[xxiv].

وعلى غرار مكّة شهدت يثْرب نشاطا تجاريا مزدهرا بفضل اليهود المتمرّسين في التجارة والماهرين في الحرف والصناعات، ومن أسواق يثْرب سوق بني قينقاع، وسوق الزوراء، وسوق العصبة وغيرها، وفي شمال نجْد أقام العرب أسواق البتراء، ودومة الجندل، وخيبر، وفي الشرق سوق الحجر باليمامة، والحيرة في الشمال الشرقي، وفي الجنوب أسواق حضْرموت وصنْعاء وعدنْ ونجْران[xxv].

لقد ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية في الممالك الجنوبية لبلاد العرب، ولا أدلّ على ذلك إصْدار ملوك قتْبان لقوانين تنظم التجارة والجباية، وسنّها لنُظُمٍ من شأْنها أن تحدّد القواعد التي يسْمح بموجبها للغُرباء في الاتّجار بأسواق قتبان، والنُّظم التي يسمح بموجبها لأهل المملكة التعامل في الأسواق الخارجية.

وعموما أدّت قريش دور الوسيط التجاري بين الشمال والجنوب، حيث كانت تنقل بضائع الشام وحوض المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن، وذلك في رحلتي الشتاء والصّيف التي حقّقت من ورائها ثروات عظيمة، جعلتها من أغنى العرب عند ظهور الاسلام، وقد اشتهر من قريش بنو عبد مناف؛ وهم أصحاب الإيلاف المختصّون بالتجارة الخارجية، فكان عبد شمس يختصّون بتجارة الحبشة، والمطّلب بتجارة اليمن، ونوفل بتجارة فارس، وهاشم الذي عقد تحالفات تجارية مع الروم وحلفائهم من الغساسنة[xxvi].

لم تكن المعاملات التجارية في أنْحاء شبه الجزيرة العربية موحّدة، فبينما شاع في المدن استعمال النّقود المعدنية من الدّنانير والدّراهم؛ عرفت البوادي نظام المقايضة، وقد تعامل بعض العرب بالدنانير الذهبية المضروبة في بلاد الروم وكذا الدراهم الفضّية السّاسانية، كما استعملوا الفلوس؛ وهي عملات نُحاسيّة محدودة القيمة، تساعد على إجْراء العمليات التّجارية البسيطة[xxvii]، وكان الرّبا من وسائل التعامل المالي الشائع في المجتمع العربي وكان سبب ثروة رجال المال، حتى نهى عنه الاسلام قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[xxviii].

[i] ابن هشام: السيرة النبوية، ص143-144.
[ii] للتفصيل أكثر في أيام العرب ينظر ابن الأثير الجزري(ت630هـ) : الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1987، ج1/ ص391 وما بعدها..
[iii] قرآن كريم: سورة الفيل، آية 1-5.
[iv] عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ابن كثير(ت774هـ): البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، مصر، ط1، 1997، ج3/ ص152.
[v] ابن كثير : البداية والنهاية، ج3/ ص378.
[vi] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1/ ص570.
[vii] ابن هشام: السيرة النبوية، ص155. شوقي أبو خليل: في التاريخ الاسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، 1990، ص24.
[viii] حسين الشيخ: العرب قبل الاسلام، ص ص100. محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، ص214.
[ix] قرآن كريم: سورة سبأ ، آية 15.
[x] محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، ص219.
[xi] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص49.
[xii] قرآن كريم: سورة التين، آية 1-2.
[xiii] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، طبع جامعة بغداد ، ط2، 1993م، ج7/ ص507.
[xiv] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام،ص58.
[xv] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7/، ص508.
[xvi] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص62.
[xvii] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7/ ص511.
[xviii] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص73.
[xix] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص79.
[xx] قرآن كريم: سورة قريش، ص 1-4.
[xxi] محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، ص246.
[xxii] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7/ ص369.
[xxiii] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7/ص381-382.
[xxiv] محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، ص250.
[xxv] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج7/ص371.
[xxvi] محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، ص257.
[xxvii] محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، ص262.
[xxviii] قرآن كريم: سورة آل عمران، آية 130.